الفصل الثامن

المشهد الأخير

الفصل الثامن

المشهد الأخير

يبدو أن كل شيء في حياة هذا الرجل كان إجبارياً ومأساوياً أيضا.. مهما كتبت عشرات المقالات والكتب ، لن تستطيع أن تصف الأيام الأخيرة في حياة " محمد نجيب " . إنها دراما معقدة تحتاج إلى كتيبة من الكتاب لمعالجتها والوقوف على أدق التفاصيل في تلك الأيام.

محمد نجيب على فراش المرض

ذلك أن المعتقل الذي قضى فيه 29 عاماً من عمره ، حتى أصبح المكان قطعة من تفاصيل وجهه ، الذي امتلأ بخطوط وعذابات المنفى الطويل والنسيان ونكران الجميل .. بعد كل هذه الأشياء التي تآلف معها محمد ، فإن المكان أثر أن يترك نجيب " بل الأصح أن يطرده .. حتى المعتقل لا يريده.. مثل السجين الذي قضى معظم سنين عمره في السجن ثم صدر أخيرا قرار بالإفراج عنه ، فنراه يعود مرة أخرى إلى السجن ..إنه لم يتعود كيف يعيش خارج هذا المكان .. وعندما أجبر على الخروج من السجن بالقوة ، شنق نفسه!.

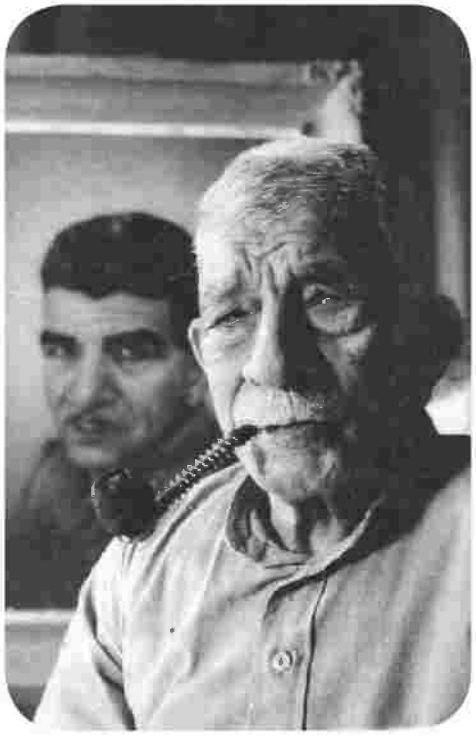

محمد نجيب بين الشباب والهرم

هكذا كان شعور اللواء محمد نجيب بعد أن صدر حكم محكمة جنوب القاهرة في 27 يناير 1983 بطرده هو وعائلته من فيلا المرج ، وتمكين

أصحابها ورثة زينب الوكيل زوجة مصطفى النحاس باشا منها ،ومن حديقتها التي تبلغ 12 فدانا ومفروشاتها وملحقاتها[1].

لقد وقع خبر الطرد الذي طيرته الصحف في تلك الفترة بصورة بارزة، على اللواء محمد نجيب ، كأنه حجر ثقيل ألقي على جسده الواهن ، لكي يستحثه على مغادرة المكان أو الموت !

عادت ذاكرة الرجل تدق بعنف لتتذكر اليوم الذي جاء فيه إلى هذا المكان، وقد رواها – أو جزءا منها في مذكراته .. تحديدا يوم 14 نوفمبر 1954.. في صباح ذلك اليوم ، عندما جاء كل من اللواء عبد الحكيم عامر وقائد أسراب حسن إبراهيم لينقلا إليه قرار مجلس قيادة الثورة بإعفائه من رئاسة الجمهورية .

محمد نجيب يطالع إحدى الرسائل

يقول محمد نجيب : وفي ذلك اليوم أيضا قال لي عبد الحكيم عامر ، إن إقامتك في فيلا زينب الوكيل ، لن تزيد على بضعة أيام ، تعود بعدها إلى

(1) جريدة الجمهورية عدد 1983/1/28 .

بيتك. ولكن من يوم أن دخلت هذه الفيلا ، وحتى أكتوبر 1983 ، لم أتركها ، حوالي 29 سنة .

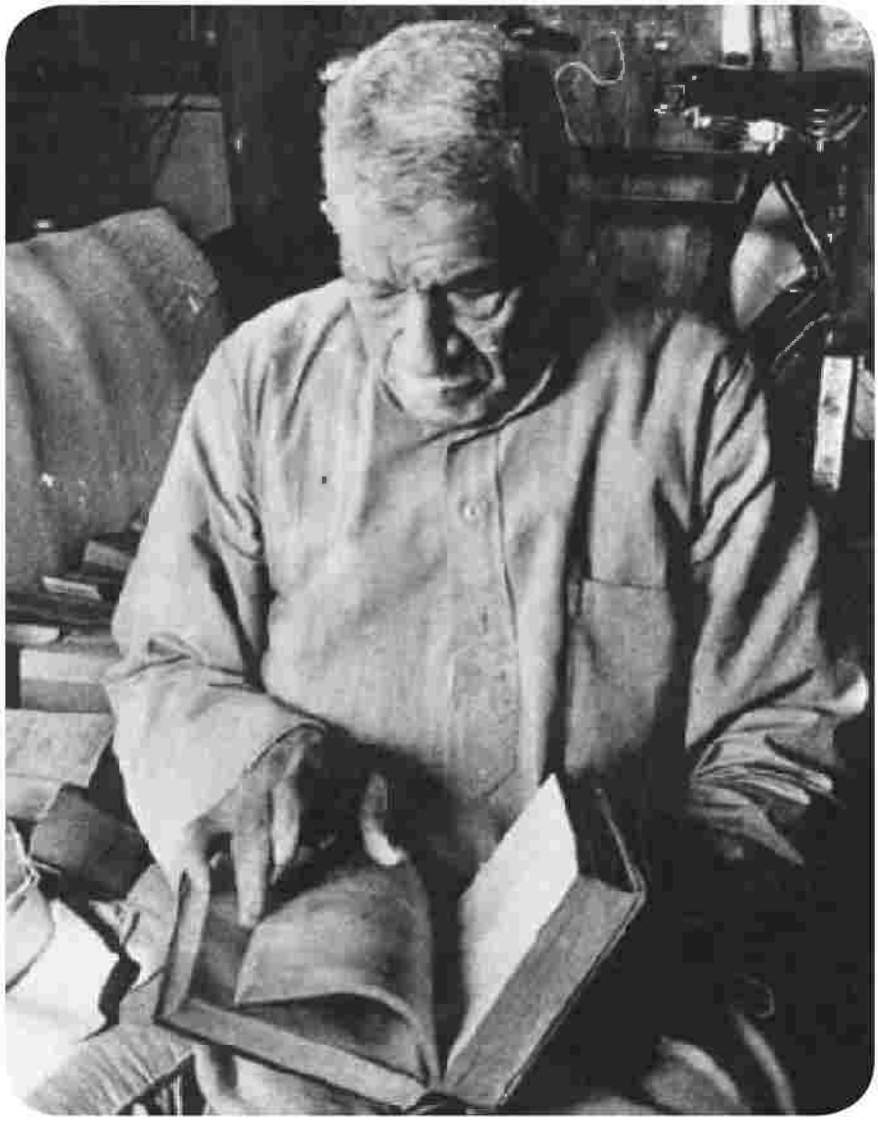

محمد نجيب يطالع أحد كتبه

ويضيف نجيب في أسى ، وقد كنت أريد أن أموت في هذه الفيلا .. فقد كان من الصعب علىَّ أن أموت في مكان آخر غيرها . بعد كل هذه السنوات

من العشرة ..ولكن ليس لي نصيب في تحقيق هذه الأمنية ..وبذلك لا أكون قد اخترت المكان الذي أعيش فيه ، ولا المكان الذي أموت فيه .

إنه الزمن يجبر الإنسان على الألفة والتعايش مع ما يحب وما يكره ، ومع ما يريده وما لا يريده .. حتى مع السجن ومع المعتقل ..وقد كان بيننا ، أنا و تلك الفيلا المهجورة والبعيدة عن قلب القاهرة بأكثر من 20 كيلو مترا ، ألفة وعشرة وارتباط ..وكان بيننا أيضاً إحساس مشترك بفقدان الحرية .. وهذا طبيعي ..فأوجاع السجان النفسية لا تقل عن أوجاع السجين نفسه .. والسجن نفسه يحزن على قدره الذي جعله يلعب دوراً لا يرضاه .. ولو أن فيلا المرج أحست بهذه الأحاسيس ، فقد قدر لها أن تتحول من استراحة إلى معتقل وتتحول من تحفة إلى خرابة[1].

عاش محمد نجيب قصة وفاء نادرة مع الكلاب والقطط وخصوصا الصورة الجميلة التي التقطها في فيلا زينب الوكيل وهي عبارة عن قطة ماتت أمها فأرضعتها كلبة حتى نضجت .

وعندما أمر الرئيس السابق حسني مبارك بتخصيص فيلا بمنطقة حدائق القبة ، لينتقل إليها اللواء محمد نجيب ، قال نجيب لبعض الصحف التي اخترقت العزلة ونجحت في الوصول إليه ..أين أذهب بعد 30 سنة لم أخرج فيها للحياة ..ليس لي معارف أو أحد يهتم بي ..أنا أعيش هنا وحدي بعد أن مات اثنان من أولادي . ولم يبق غير واحد منهم.. فأين أذهب ؟ .

كانت غرفة محمد نجيب في فيلا المرج ، في الأيام الأخيرة قبل انتقاله لفيلا ولي العهد في أكتوبر 1983 ، غرفة مهملة ..بها سرير متواضع ..يكاد يختفي من كثرة الكتب الموضوعة عليه ..هي غرفة النوم الوحيدة في ذلك

(1) كتاب كنت رئيسا لمصر ، مرجع سابق .

القصر المهجور المفزع ..وتقع في الطابق العلوي ..وكان بجانب السرير ، كنبة وحيدة مغطاة أيضاً بالعديد من الكتب ومنضدة بجانب السرير تتناثر عليها عشرات من علب الدواء.. ثم مجموعة من الآيات القرآنية بالإضافة إلى صور كبيرة لمجموعة من الكلاب والقطط ، كتب عليها " هؤلاء هم أصدقاء في وحدتي 30 عاماً بالمنفى!! " .

كان اللواء محمد نجيب ، يقضي معظم أوقاته في هذه الحجرة ، يداوم على قراءة مختلف أنواع الكتب خاصة كتب الطب والفلك والتاريخ ..كانت مكتبة ضخمة ، كما قال لي اللواء حسن سالم ..بها كتب أصلية في كل العلوم.. جمعها منذ كان ضابطاً صغيراً في الجيش يقيم بحي المنيل ..وبها كتب في علم الحيوان والنبات والفلسفة والطب واللغات المختلفة العبرية والروسية والإيطالية ..فقد كان اللواء نجيب يجب تعلم اللغات منذ فترة عمله بالجيش ودراسته بكلية الحقوق ..مكتبة نادرة لكنهم استولوا عليها بعد رحيله ! .

ويقول محمد نجيب " هذا ما تبقى لي فأنا خلال الثلاثين سنه الماضية ، إما أن أصلي وأقرأ القرآن أو أتصفح الكتب المختلفة "[1].

أما أصدقاء محمد نجيب الأوفياء فكانوا من الكلاب وقد كتب عنهم كتابا تم منعه من النشر ، يشير فيه إلى قيمة الوفاء لدى الكلاب التي لم يلمسها فى البشر ،كانت عنده كلبة اسمها (لايكة).. وأخرى اسمها (خروبة) والأخيرة كانت معروفة بإنجابها الكثير من الكلاب الصغيرة .. هذا بخلاف القطط التي كان نجيب يداعبهم وكانت يقومون باصطياد الثعابين في حديقة الفيلا البائسة..

كان اللواء محمد نجيب يتعامل مع الكلاب والقطط مثلما يعامل القائد جنوده ، كل كلب أو قط وقطة له (التعيين) أو حصة يومية فى الأكل والشرب، وإذا ثبت له أن أحدهم تجاوز أو ارتكب مايغضبه منع عنه الطعام لفترة

(1) مجلة آخر ساعة ومحمد نجيب يروى سنوات الصمت وراء أسوار المرج . نشر بعد رحيله في 9 سبتمبر 1984 .

قصيرة حتى يتعلم الأدب.. ».. ووصل وفاؤه لهذه المخلوقات غير الآدمية إلى حد أن «محمد نجيب» كان ينقطع عن الأكل لأيام لو توفى كلب من كلابه ".

لماذا تجاهل الضباط الأحرار زيارة نجيب فى المستشفى؟

كانت الأيام الأخيرة للواء محمد نجيب عصيبة وأليمة كما رواها لي رفيق تلك الأيام اللواء حسن سالم بأنه كان يقضيها بين المستشفيات" مرة مستشفى المعادي العسكري أو القبة العسكري أيضا ..للعلاج من أمراض الشيخوخة التي كانت تحاصره ..من ضعف الشهية وفقدان القدرة على الإبصار وهشاشة العظام وغيرها من الأمراض ..ورغم ذلك كان يحرص على الصلاة ..وكان يتيمم ، ثم يصلي وبعد ذلك يقرأ في المصحف ..وأحيانا يدون بعض الآيات ..

وكان من زوار محمد نجيب في المستشفى العسكري بالمعادي قلة قليلة ، لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، هم ابن شقيقته اللواء حسن سالم، والسفير رياض سامي مدير مكتبه ومستشاره الصحفي عندما كان رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، وقد زاره أيضاً د. عبد العزيز حجازي رئيس الوزراء الأسبق ، بينما لم يزره أي واحد من مجلس قيادة الثورة أو من الضباط الأحرار ، الذين احتموا به وصدروه في مواجهة الإعدام رمياً بالرصاص لو فشلت حركة الجيش لأي سبب ، وقد كانت مكشوفة لرجال البوليس السياسي الملكي في ذلك الوقت ! .

ابتعد الجميع عن الرجل الذي فداهم بنفسه ، وكانوا يتسابقون لحمايته والالتفاف حوله ، وهو يقوم بجولاته في جميع أنحاء البلاد ..أين خالد محيي الدين الذي كان يتشدق بأنه كان من دعاة الديمقراطية إلى جانب محمد نجيب؟! وقد كان رئيساً لحزب التجمع اليساري المعارض ، وله نفوذه ونائباً بالبرلمان ، فلماذا لم يقم بزيارة قائده ورئيسه السابق ؟ ومم كان يخاف الرجل؟! لقد رحل الذين كان يعمل لهم ألف خاطر ، على طريقة أن السياسة هي فن الممكن والموازنة والمرونة والحساب ؟! أين حسين الشافعي وعبدالمنعم أمين وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي ..وكل من كان حياً في تلك

الفترة ، وخارج السلطة ولم يفكر في السؤال عن الرجل أو حتى زيارته .. ولذلك عندما قامت أسرة العقيد يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة وبطل ليلة 23 يوليو ، بزيارة اللواء محمد نجيب في أواخر أيامه بالمرج ، قال لهم "إنها عورة ..وليست ثورة " ! ، ونص هذا التسجيل عندي وقد تسلمته من السيدة سهير يوسف صديق .

نجيب مع بطريرك الروم الكاثوليك

كان هذا اللقاء بين اللواء محمد نجيب في حوالي شهر سبتمبر 1983، قبل أيام قليلة من انتقال نجيب إلى فيلا ولي العهد بالقبة . وعندما سأله اللواء حسين يوسف صديق عن الذين يزورونه في هذا المعتقل ، وهل خالد محيي الدين يأتي لحضرتك ! فقال نجيب :" خالد مبيحبش ..خالد بيخاف، عشان مراقب ،أنا مش عايز حد يجيني ، خليها على الله ..جالي محمد أحمد رياض (قائد الحرس الخاص سابقاً) وسامي رياض اللي كان سفير في ألبانيا ..وجاني ..ما أقدرش أقول مين ؟ أنا مش خايف أنا خايف من ربنا وبس والحمد لله "[1].

وفي الوقت الذي تنكر فيه ضباط مجلس قيادة الثورة لقائدهم ، ولم يجرؤ واحد منهم على زيارته أو السؤال عنه ، فقد كان تلامذة مدرسة أرمنية أكثر جرأة وشجاعة من هؤلاء جميعا ، عندما قام وفد من مدرسة نوباريان

(1) انظر ملحق الوثائق .

الأرمنية بمصر الجديدة بزيارة اللواء محمد نجيب في معتقل المرج في أواخر عام 1977 ، وضم الوفد ناظر المدرسة "آرام مويسسيان " ووكيل المدرسة وأربعة تلاميذ ، ولم يتطرق الحوار لأية مسائل سياسية ، سوى السؤال عن صحة أول رئيس لمصر ، والتقاط الصور التذكارية معه . وقد قام اللواء نجيب برد الزيارة بعدها بأسبوع واحد[1]!.

مشاعرنجيب لحظة سماع نبأ اغتيال السادات:

وعلى الرغم من أمراض الشيخوخة وآلام الجحود والنكران ، التي عاشها محمد نجيب في أيامه الأخيرة ، فإنه كان مهتماً حتى آخر لحظة في حياته بسماع الأخبار والأحداث العالمية من جهاز الراديو القديم القابع بغرفة نومه.. وقد ذكرت لي حفيدته " نجيبة يوسف محمد نجيب "- كان عمرها وقت أن توفى جدها (14 سنه)- أن جدها كان متأثراً جداً وهو يسمع خبر اغتيال الرئيس السادات في الراديو ، وكاد الرجل ينهار من البكاء ..لولا أن قمنا بإغلاق الراديو ..فهو كان يشعر دائماً بأنه والد وأب حنون لكل رفاقه من أعضاء مجلس قيادة الثورة مهما كانت قسوتهم وتعاملهم معه بعنف " ..وتقول نجيبه أيضاً إنه كان قلقاً من بعض الأحداث العربية مثل قيام إسرائيل بغزو لبنان في عام 1982!.

الرئيس نجيب في زيارة للأزهر الشريف

(1) مقابلة شخصية مع د. جورج نوبار سيمونيان ،أستاذ مصري من أصل أرمني

وعندما سأله بعض الصحفيين عن تلك الأحداث ، قال محمد نجيب ..إن تفكك العرب وعدم توحد كلمتهم ، هو سبب سوء حالتهم الآن ، وأن ما يحدث في لبنان ، هو تكرار لما حدث في فلسطين عام 1948 [1].

وفي عام 1982 أرسل اللواء محمد نجيب عدة رسائل وبرقيات إلى الرئيس الأسبق حسني مبارك ، يطالبه فيها بتشكيل لجنة من المؤرخين والسياسيين وأعضاء البرلمان المصري لإعادة تقييم دوره في ثورة 23 يوليو 1952 ، وقال محمد نجيب في رسالته "إن دوري في الثورة شطب بقرار رسمي ، وتجاهلته كتب التاريخ التي تدرس في المدارس والجامعات المصرية تماماً ، فالمناهج وكتب التاريخ المصرية تتحدث عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بوصفه أول رئيس لجمهورية مصر العربية[2].

ويتذكر اللواء حسن سالم اللحظات الأخيرة في حياة اللواء محمد نجيب قائلاً : كان اللواء نجيب في أيامه الأخيرة يتكلم ببطء ..ليس بصعوبة ..فهو لم يكن مصاباً بأمراض خطيرة ، ولكن كلها أعراض شيخوخة ، كما ذكر لنا الأطباء المعالجون ، وقد طلبوا منه ألا يرتدي حذاء في قدميه ، بل يرتدي "جوارب" فقط ويمشي في طرقات المستشفى ..وأتذكر أنه طلب مني أن أحضر له عصا ، لكي يستند عليها وهو "يتمشى" وكان ابن خالة زوجتي في رومانيا ، فطلبت منه أن يحضر لي عصا من هناك شارحاً له أسلوب مرض ومشي اللواء محمد نجيب وقد أرسلها لي فعلا[3] .

وفي اليوم الأخير " قبل أن يلبي نداء ربه " ..كنت بجواره في المستشفى حتى الساعة الحادية عشرة صباح يوم 28 أغسطس 1984 ..وظللت معه

---

(1) تصريحات نجيب لجريدة المساء في 1983/7/17 بمستشفى القبة العسكري . وقد أكد نجيب " للمساء " أن حالته الصحية لم تمنعه من متابعة جميع الأحداث السياسية داخل مصر وفي الوطن العربي !

(2) راجع جريدة القبس الكويتية في 30 /8/ 1984 .

(3) ذكر الدكتور " السيد علي السيد " وزير شئون مجلسي الشعب والشورى الأسبق في مذكراته "أنه في منتصف السبعينيات تقريباً أصدر الرئيس السادات قراراً بتشكيل لجنة لكتابة تاريخ ثورة 23 يوليو 1952 برئاسة نائب رئيس الجمهورية آنذاك " محمد حسني مبارك " ..ويشير د. السيد علي السيد إلى أن اللجنة اختصت بالاستماع إلى اللواء محمد نجيب " قائد الثورة في بدايتها وأول رئيس للجمهورية بموجب بيعة شعبية له " .

للمزيد راجع كتاب " عقبات على طريق الديمقراطية ، برلماني يتذكر ، د.السيد علي السيد ، المكتب المصري الحديث 2002 .

حتى فترة القيلولة ما بعد صلاة الظهر ، ثم ذهبت إلى البيت في المنيل ، تناولت الغداء وبعدها " طلعت " في دماغي أن أصطحب معي خالاتي ونروح المستشفى، وفعلا أخذتهم وطلعنا على المستشفى وكان " كويس " ويتكلم معنا، وفجأة تعب " شوية "..ورفع يديه إلى السماء ثم أنزلهما ببطء ..ووجدناه يميل إلى الأرض برقبته قليلا ..فأنا ناديت " يا خالي محمد " مرتين فلم يرد.. ثم ناديت على الدكتور فوراً ..وجاء الطبيب المعالج ..وقال لنا " البقية في حياتكم " ..وبعدها اتصلت رئاسة المستشفى بوزارة الدفاع ، " أما أنا فقد اتصلت بصديقي نور فرغل برئاسة الجمهورية " وقلت له " لقد كانت وصية اللواء محمد نجيب أن يدفن في السودان " . وطلبت منه أن يخصص طائرة لدفنه في السودان ، فقال لي نور فرغل " اطمن ..أنا هابحث الموضوع ده مع القيادة ! وبعد ذلك أخبرني أنه تحدد أن تكون الجنازة عسكرية ، وأن يدفن الرئيس محمد نجيب في مقابر الشهداء بالغفير " طريق صلاح سالم " .

ولم ينتظروا حضور خالي اللواء علي نجيب من لندن ، وكان مقرراً أن يعود في اليوم التالي لوفاة محمد نجيب في المساء ، أما الدكتور محمود نجيب فكان في الإسكندرية ، وقد وصل متأخراً لموقع الجنازة ، ولم يتمكن من اختراق الحواجز العديدة ..وهي في الواقع كانت جنازة عسكرية خالصة وحمل جثمان اللواء نجيب على عربة مدفع ، وتقدم الجنازة الرئيس الأسبق حسني مبارك وكنت أقف بجواره مع يوسف محمد نجيب ، بالإضافة لأعضاء مجلس قيادة الثورة الباقين على قيد الحياة في ذلك الوقت ، وكذلك كان موجوداً رئيس مجلس الشعب السوداني ورؤساء أحزاب المعارضة والباقي حرس !!

ويستكمل اللواء حسن سالم تفاصيل ذلك المشهد الأخير في وداع اللواء محمد نجيب قائلاً ..." وفي المساء أقامت الدولة سرادق عزاء أمام مسجد عمر مكرم ، كان أغلب الموجودين فيه من العسكر ! وكان يجلس بجواري د.جعفر عبد السلام أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر وهو زوج ابنة اللواء علي نجيب ، فاقترحت عليه أن نغادر السرادق ، ونذهب لاستقبال اللواء علي

نجيب في المطار ! والغريب أنه في ذلك اليوم العجيب نفسه ، والرجل لم يبرد دمه في قبره ، إلا ويأتيني خبر طرد أحفاده من فيلا ولي العهد ، التي خصصها له الرئيس مبارك ، بعد طرده من فيلا المرج بحكم المحكمة وقد اتصلت برئيس الشرطة العسكرية ، والمثير في الأمر أن اسمه " اللواء محمد نجيب " !! فأخبرني أنه ينفذ الأوامر فقط ! وغير قادر على عمل أي شيء[1].

شهادة حسن سالم أكدتها شهادة " نجيبة يوسف " حفيدة الرئيس محمد نجيب ، حيث روت للمؤلف حقيقة ما حدث لهم فور انتهاء جنازة جدها ... قائلة:" طردونا بشكل مهين ..ولم نجد حلا سوى الإقامة لدى طباخ جدي" !! .

ويختتم اللواء حسن سالم شهادته قائلا :رغم كل هذه المآسي وسنوات الحرمان والمنفى رحل محمد نجيب و لم يأخذ معه شيئا من متاع الدنيا وكان رصيده في البنك قيمته 624 جنيهًا فقط لا غير ، أوصى بجزء منه يعادل 90 جنيها لخادمته "فتحية" التي لا تملك من حطام الدنيا أي شيء وتعيش مريضة فى حجرة بمنزل أقارب زوجته المرحومة عائشة لبيب ، والباقي لأحفاده ، لعلهم يحفظون العهد والوفاء، بعد أن عانى سنوات من التجاهل والنكران.

(1) ذكرت جريدة الأهالي في صدر صفحتها الأولى في 5 سبتمبر 1984 ..أن مجموعة من قوات الشرطة العسكرية، قامت باقتحام فيلا ولي العهد ، التي كان يقطنها اللواء محمد نجيب ..وقامت بطرد أحفاده نجيبه "14 سنة " وسامية " 12 سنة " ، ومحمد " سنتان " وخادمة عجوز " فتحية " . واستولت على مذكرات شخصية كتبها اللواء نجيب بخط يده قبل رحيله .